

# جميعنا اليوم شخصيات في لوحات إدوارد هوبر

## فنان العزلة والانعزال رسمنا قبل قرن من الآن



العزلة هو ما خلقته لنا العوالم الجديدة



لا تهرب من العالم الخارجي إلا لتعود إلى الذات



شخصيات تعيش الوحدة ببرود

مثل هذه الفتاة حالات العبيدين منا، إن لم يكن جلنا، حيث يكون الصباح هو ملائنا الوحيد للجلوس والحديث مع أنفسنا؛ وكم هو شائع هذا الفعل. لكنه ورغم ذلك، فهو الجوهر الأكثر وحشية وغربة، من بين كل الأفعال التي يقوم بها البشر في حياتهم.

إن الجلوس إلى العزلة هو الفعل الذي خلقته لنا العوالم الجديدة، ورغم ضجيجها المطبق على أسمعنا، ورغم الزحام الذي يخترقنا حتى داخل أنفسنا، نلصق منظرين إلى داخلنا نلصق نجد من يسمعنا، فكم تكون غير مسموعين وإن صرخنا في هذا العالم السريع.

### البحث عن الخلاص

لقد ألهمت مشاهد هوبر النقاد كما ألهمت السينمائيين، إذ استوحى هيتشكوك لوحة "منزل بمحاذاة السكة الحديدية" في فيلمه 1960 "Psycho"، وفي فيلم 2013 "Shirley" لغوستاف دوتش تم اختياره، في سفر إلى عوالم هوبر الانعزالية، 13 لوحة لتجسيد السياق الاجتماعي والسياسي والثقافي لفترة منتصف القرن الماضي.

اليوم يشهد العالم حالات إنسانية اضطرابية جعلت جل البشر يعودون إلى حالة الانعزال بسبب تفشي الوباء التاجي الخفي، كأننا بالفعل نجسد لوحات هوبر ونصير، خوفاً من الموت الذي يترصنا، شخصوية المنعزلة وبسادة الملامح التي تترقب شيئاً لا يكاد يتحقق.

فقد حاول هوبر أن ينسج لنا دواخلنا الهشة، حالاتنا البشرية التي تنكسر بسرعة، حالات حساسة ومهزلة، لا تهرب من العالم الخارجي إلا لتعود إلى الذات الفردية التي تنطلق على نفسها وهي تراقب العالم يتحرك ببهاء أمامها، دونما أن تقدر على التدخل فيه.

**هوبر خلق شخصاً غارقة في التأمل وفي حالة انتظار، كأنها تنتظر قدوم أشياء وشخص من خارج اللوحة**

هكذا حدث لنا ونحن نراقب العالم يهرب إلى داخل الدور ليغلق الأبواب، ويهرب الكل إلى نواتهم في لحظة فرار من الموت الذي يشكل "قلقاً وجودياً" بتعبير مارتين هايدغر. فالهروب من الموت إذن هو عودة إلى الذات من أجل البحث عن الخلاص. هذا الفعل، أي البحث عن الخلاص الذاتي، هو ما يحاول أن يصوره لنا إدوارد هوبر عبر مشاهد الصباغية المشبعة بالحساسية الهشة والمفرطة.

إلى طاولته من خلال الحاجز الزجاجي، بينه وبين المشاهد فاصل شفاف، كما بينه وبين العالم الخارجي الذي لا يعبا به ستار زجاجي يقابله، ما يجعلنا نراقب المبنى من الداخل والخارج ونراقب الشخص وهو في عزلة غير مكرت بما تقوم به (مراقبته).

لعله قد اعتاد على عزلة الروتينية في مكتبه، روتينه البيروقراطي، بينما يمر الجميع بمحاذاة النافذة في قطار على جسر مرفوع.

ما الذي قد يخلقه كل هذا الانعزال والتباعد في نفوس وإجساد الناس؟ هذا ما تحاول أن تجيب عنه أعمال هوبر، أو على الأقل تحاول جعلنا نبحث من خلالها عن الإجابة عنه.

لقد عاش هذا الفنان الأزمة المالية العالمية الخائفة لسنة 1929، والتي انطلقت شرارتها الأولى من بورصة وول ستريت الأميركية، لتجتاح العالم كما يجتاحه فيروس كورونا اليوم.

وقد تركت هذه الانتكاسة العالمية أثرها على صباغات هوبر، حيث بدأ يصور حالات الانعزال الاضطرابي، والقلق وعدم الارتياح الباديين على ملامح الشخص، كأنهم أفراد تلك الأسر التي فقدت عملها ومالها في العالم كله، ومعه فقدت الأمل في المستقبل، وسرعان ما ستجد نفسها أمام "جائحة" الحرب العالمية الثانية.

ويتجسد ذلك في عمله "محطة البزنيز" (1940)، حيث يقف العامل (أو صاحب المحطة) أمام المضخة في انتظار الزبون الذي لا يأتي. فهوبر أبدع في خلق شخص غاصين في التأمل وفي حالة انتظار كأنهم ينتظرون قدوم أشياء وشخص من خارج اللوحة؛ هل هم نحن على ما يبدو؟

في لوحته "شمس الصباح" (1952)، تتأمل امرأة شابة وهي تجلس تفكر وسط أشعة الشمس الصباحية التي تغمر سريرها؛ حيث تجلس مستيقظة في غرفتها الواقعة في عمارة وسط مدينة متواضعة، ويتضح لنا ذلك من البناية ذات الطوب الأحمر البارز، التي تظهر من النافذة المفتوحة (وكم يجسد إدوارد هوبر النوافذ في أعماله بكثرة).

ورغم كل هذا الجو البارد، فقد خلق الفنان جواً من الهدوء والطف حول الفتاة، التي تبدو هادئة وهي تتأمل المشهد الخارجي، ضائعة وسط أفكارها. في صمت مرعب للجدران التي تدفئ وحدتها وعزلتها إلى جانب أشعة الشمس التي تستحوذ على المكان.

إلى طاولته من خلال الحاجز الزجاجي، بينه وبين المشاهد فاصل شفاف، كما بينه وبين العالم الخارجي الذي لا يعبا به ستار زجاجي يقابله، ما يجعلنا نراقب المبنى من الداخل والخارج ونراقب الشخص وهو في عزلة غير مكرت بما تقوم به (مراقبته).

لعله قد اعتاد على عزلة الروتينية في مكتبه، روتينه البيروقراطي، بينما يمر الجميع بمحاذاة النافذة في قطار على جسر مرفوع.

ما الذي قد يخلقه كل هذا الانعزال والتباعد في نفوس وإجساد الناس؟ هذا ما تحاول أن تجيب عنه أعمال هوبر، أو على الأقل تحاول جعلنا نبحث من خلالها عن الإجابة عنه.

من منا اليوم لا يعاني العزلة، حتى أكثرنا اجتماعية صار لزاماً عليه التباعد الاجتماعي والبقاء في المنزل والانعزال توفياً من الفيروس الذي بات يهدد البشر. خطر الفيروس أكثر عمقا من خطر الحرب، فإن كان البشر يميلون إلى التجمع والتكاتف ضد الخوف في حالات الحرب أو الكوارث، فإن حالة الفيروس مختلفة تماما، حيث يحتمي كل فرد بذاته، ويدخل في عزلة، عزلة لم يفرضها الفيروس بمفرده بل مهدت لها الطريق الأزمات الاقتصادية وتسارع وتيرة الحياة وتفكك الأسر ولجوء الناس إلى العالم الافتراضي على حساب الواقع، وغيره مما فرض عزلات ذاتية على الكثيرين. لكن لنفهم العزلة جيدا لا محيد عن التمتع في لوحات إدوارد هوبر.

الحضور "بتعبير فيلسوف الفينومينولوجيا إدوموند هورسل.

وهذا التضاد بين الانعزال وتقاسم العيش، هو ما سعى إلى إبرازه فنانون كثر، عبر لوحاتهم الصباغية التي تناولت الموضوع كل حسب رؤياه، وإدوارد هوبر واحد من أبرزهم وأشهرهم الذي جعل جل أعمالهم تناقض وتتناول هذه الموضوعية باعتبارها "شئ لا مفر من"، و"ضرورة" حياتية تفرض نفسها علينا من الوقت إلى الأخر.

### الخوف من العزلة

يقول إميل سيوران إن "كل ما يجري بين الناس خيرا أو شرا هو نتيجة الخوف من العزلة". فهذا الخوف من العزلة الذي يقابله أيضا الاندفاع نحوها، حيث إنها "وطن للأرواح المتعبدة"، كما يقول هيمبغواي، يجعل منها فعلا إنسانيا مقدر ما يحمل في طياته هروبا نحو الذات أو وحشا نلوث منه نحو الآخرين باعتبارنا كائنات اجتماعية، فقد شغلت بال الكثير من الفلاسفة والأدباء والفنانين.

إدوارد هوبر (1882 - 1967) الفنان الأميركي الواقعي المجدد، واحد من هؤلاء الفنانين المشغولين بهاجس الانعزال والابتعاد الاجتماعي. إن تحضر العزلة في أعماله بصفتها نوعا من التصوير الصباغي الذي يجسد مقولة شوبنهاور "من لا يستمتع بالعزلة لن يهوى الحرية". فشخص هوبر المنعزلة والمبتعدة تبدو في حرية وهي تهيم في عالم من التأمل والتفكير، بملامح جافة وباردة دائما.

في هذه المرحلة من التاريخ البشري المعاصر المتسمة بغزو فيروس كوفيد-19، تجد لوحات هوبر رواجاً مكثفاً على شبكات التواصل الاجتماعي، لما تجسده من محاكاة للواقع الهنا والآن، واقع البشرية المنعزلة إلى خلف أبواب دورها، بعيدا عن الموت المحقق بها في الخارج؛ فنحن اليوم جميعا أشخاص من شخص لوحات هوبر، الذي يوصف بأنه "سيد العزلة" وأكثر الفنانين الذين استطاعوا تجسيدها في أعمالهم، في مشاهد تحث على التفكير والتأمل.

لقد تخصص هذا الفنان في ترجمة أحاسيس العزلة والابتعاد الاجتماعي، واستطاع تصوير هذه الأجواء عبر طرق مختلفة، بما فيها الغياب المطلق لكل هيئة بشرية، كما هو الحال في إحدى أهم لوحاته "منزل بمحاذاة السكة الحديدية" (1925).

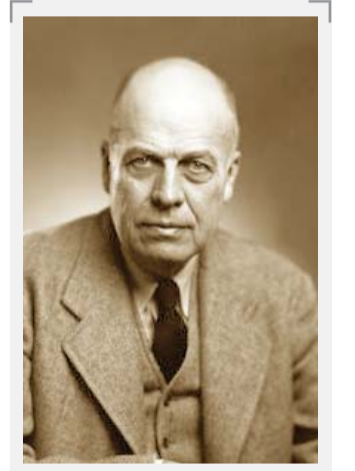
أما في عمله "مكتب في مدينة صغيرة" (1954)، يتجسد أمامنا رجل جالس إلى طاولته في مكتب تغمره أنوار الشمس، في طابق عال؛ غير أنه بان يري. نرى الرجل الجالس



عزالدين بوركة  
شاعر وباحث جمالي  
مغربي

ظل الإنسان كائن المتناقضات والمفارقات، كأننا بقدر ما يميل إلى شيء ففي الوقت عينه قد ينفر منه، لكنه أكثر الكائنات الحية قدرة على التكيف والعيش تحت جل الظروف التي تفرضها عليه الطبيعة، سواء البيئة المحيطة أو طبيعته البشرية.

ووفق ما ذكرناه فإنه ليس من المدهش والغريب أن يميل الإنسان إلى العزلة وينفر منها، إلا أنه "قسي العزلة، لا ينمو سوى ما أتى به المرء معه"، كما يقول فيلسوف المطارق فريدريك نيتشه.



**إدوارد هوبر (1882 - 1967)**  
فنان أميركي واقعي مجد  
انشغل في أغلب أعماله  
بهاجس الانعزال والابتعاد  
الاجتماعي ورسمه بذكاء

نحن نأتي إلى العزلة سواء الداخلية وإن كنا مكتظين بغيرنا، أو الخارجية ونحن بمعزل عن الكل، بما راكمنه من أفكار حول العالم، ناتي مدججين بياسنا ووجدتنا ورؤانا، نحاول التخلص من نقل ووزر ما، أو البحث عن خلاص ما في أعماق الذات.

شعورنا بالعزلة، إذن، لا يرتبط بوجود الأشخاص أو غيابهم حولنا، كما يقول ذات الفيلسوف،

"شعوري بالعزلة لا يعتمد على وجود أو غياب الأشخاص، على العكس من ذلك، فانا لا أحب من يقتحم عزلتي وينزعها مني بدون أن يقدم لي رقة حقيقية تسعدني".  
فإنسان كائن ميال إلى العيش المشترك وتقاسم الحياة مع الآخرين، إنه صفة الوجود أو "ميثافيزيقا"

